متحمسان ...!

كنا ذات صباح نحو عشرين رجلا قد وقفنا واحدا خلف واحد ننتظر فى قلق حتى تفتح نافذة تذاكر السفر؟ وأخذ يتزايد عددنا دقيقة بعد أخرى، وكان كل قادم يأخذ مكانه فى ذيل هذا الخط الطويل الذى ذكرنى بما كنا نفعل ونحن صغار حين كنا نقلد القطار ...

وكنا جميعاً لا نفتأ ننظر فى ساعاتنا وصفير القُطر وصوت رحيلها على الأفاريز القريبة يملأ أسماعنا، وحركة المسافرين والحمالين وهم يسرعون فى موجب وفى غير موجب تزيدنا قلقاً على قلق، ونشاط صارفى التذاكر فى النوافذ المفتوحة على جانبى نافذتنا الموصدة يلقى فى نفوسنا الشك فى وجود من يفتحها أو يميل بنا إلى الظن أنه ربما ربكه فى حجرته عمل آخر. وكان أكثرنا نظراً فى ساعاتهم من كانوا أكثر بعداً عن النافذة؛ على أن القلق قد اشتد بنا جميعاً حتى أوشك أن يتحول إلى ضجر ... وأخيراً فتحت النافذة.

أقبل بائع التذاكر على عمله فى هدوء وتؤدة، بعد أن ألقى نظرة على المنتظرين، وكان مبعث اطمئنانه أنه كفيل ببيع التذاكر جميعاً قبل تحرك القطار بوقت كاف فهو خير بعمله وقلما داخله ما يداخل المسافرين من قلق.

وأخذ كل منا يخطو خطوة كلما خلا من مقدمة الصف رجل، وبينما نحن على هذا النظام الذى نفعله مقادين نزلاءنا منذ كثر عددهم بيننا فى هذه الحرب، إذ أخذت عيناى لا بل أخذ منظارى شاباً مقبلا بادى الأناقة، متكلف العظمة، يلتمع شعر رأسه الحاسر التماعاً لايضاهيه إلا التماع رباط عنقه الأحمر، وإنه ليخطو فى خيلاء تشبه الصلف، يضرب الأرض بقدميه ضرباً قوياً حتى ليحدث حذاؤه صوتاً واضحاً فى ضوضاء الفناء، وما أسرع ما فطنت إلى أنى منه تلقاء متحمس، وإنى لشديد المحبة للمتحمسين عظيم الشغف برؤيتهم.

ومشى هذا المتحمس إلى النافذة فوضع نفسه فى رأس الصف وهيهات أن يرضى متحمس أن يكون فى المؤخرة، ولكنه ما كاد يمد يده بالنقود حتى سرت فى الصف كله موجة احتجاج كانت أكثر شدة فى آخره؛ وارتفع صوت من الوسط ينبه هذا المخالف:

— أرجو أن تأخذ دورك وإلا فما معنى أن كلاً منا قد دار تضى دوره؟

— هذا ليس من شأنك ... أأنت مفتش؟... أأنت مراقب؟

— يا سيدى هذا لا يليق ... ارجع إلى موضعك من فضلك

— موش شغلك يا أفندى ... إشكى إلى مدير المصلحة

وتحير هذا الذى يحتج ماذا يقول، ولكنه ما لبث أن صاح قائلا فى غضب: «يظهر أنه مازال بيننا (جليطه) كثير» ونظرت فإذا بى منه تلقاء متحمس ثان فى نهاية سن الكهولة، وأنا كما ذكرت لك أحب المتحمسين وأطرب أشد الطرب لرؤية تحمسهم

وجاء أجنبى فى تلك اللحظة فقصد إلى النافذة كما فعل المتحمس الأول؛ ولعله قد رأى مزاحمته فظن الأمر فوضى، وما كاد ينبهه أحدنا حتى عاد إلى موضعه فى ذيل الصف معتذراً عن خطئه وفى وجهه حمرة شديدة من فرط الخجل.

وإذ ذاك نظر المتحمس الثانى إلى المتحمس الأول قائلا وهو يشير إلى ذلك الأجنبى: «ألا ترى؟ هذا لأنه بنى آدم»

ولكن صاحبنا لم يتزحزح عن موضعه وكأنه يتمسك بمبدأ الثبات حتى الموت، وإلا فما له لا يبالى بضجر المتضجرين فى الصف كله — إلا أنا بالضرورة — ولا يبالى بنظرات الإزدراء تنوب نحوه فى شدة كادت تجعل من فى الصف ما عدا متحمسين؟

لم يعبأ على الرغم من ذلك وظل متمسكا بمبدئه القويم ومد يده بالنقود إلى بائع التذاكر فما أشد ما أخذه من حيرة إذ سمع ذلك البائع يقول له فى هدوء: «من فضلك اذهب إلى موضعك»

وثارت ثائرة هذا المتحمس، فقال فى صوت أشبه بالصراخ وهو يضرب النافذة بقبضته «أتمتنع عن بيع التذكرة؟» وتطلعت فى فرح أحسبنى أظفر برؤية متحمس ثالث، ولكن البائع ظل هادئاً ونظر إليه مبتسما وهو يقول: «إشكى إلى مدير المصلحة»

وتناول البائع النقود من كل مسافر حسب دوره فى الصف وظل صاحبنا فى موضعه قرب النافذة متمسكا بمبدأ الثبات حتى الموت يرشقه كل من أخذ تذكرته بنظرة ازدراء، حتى جاء دور المتحمس الثانى وقد امتلأت نفسه إعجاباً ببائع التذاكر وعدالته، فنظر نظرة نصفها إليه ونصفها إلى ذلك الذى لم تجده حماسته وقال متهللا: «والله مايصح أن يكون مدير المصلحة غيرك»؛ ثم صوب نحو زميله الذى مانت حماسته من الخزى نظرة شامتة وهرول إلى حيث يقف القطار.

الخفيف